قضية القدماء والمحدثين .

إن هذه القضية ليست جديدة إذ لم يخلُ عصر أدبي في حياة الأمم التي كان لها نصيب من الأدب وحظ في إتقان القول وإجادته من هذه القضية.

إذ إن الخلاف قد وقع بالفعل في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، ثم ظهر الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب الجاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين .

ونرى من ذلك أن كل هذا العصر الذهبي عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وذلك لانقسام الناس إلى فئتين تميل إحداهما إلى القديم ، وتجد فيه لذاتها ، وأنسها ، وتميل الأخرى إلى الجديد لأنه يعبر عن نفسيتها ومشاعرها وبيئتها التي تعيش فيها .

ماذا نعني بالقديم والجديد ؟

لقد حدد العلماء بداية القديم بنضوج الشعر العربي قبل الإسلام بقرن ونصف تقريباً ونهايته بمنتصف القرن الثاني للهجرة .

ومن هنا ندرك أن القديم ينتهي عند ابن هرمة الذي يعد من أنصار القديم آخر سلسلة القدماء وهذا يعني أن القديم يشمل الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي.

كما يوجد من تعصَّب للقديم وقصره على الشعر الجاهلي فحسب الذي كان مصدراً للاحتجاج به على لغة العرب .

كما يروي ابن رشيق عن الأصمعي : (أنه قال عن أبي عمرو بن العلاء جلست إليه ثماني حجج فما سمعته يحتج بيت إسلامي) .

أما مفهوم الجديد فبتحديد نهاية القديم يبدأ الجديد ، وكان بشار بن برد (ت 167هـ) إعلاناً ببدء الشعر الجديد (المحدث) .

يقول طه إبراهيم : (أما عصر المحدثين فبدؤه قبيل قيام الدولة العباسية ، بدؤه في الواقع من عهد بشار ، ومروان بن أبي حفصة ، ومطيع بن إياس وغيرهم من مخضرمي الدولتين ، ويشمل كل من جاء بعدهم من الشعراء الذين كتبوا باللسان العربي إلى اليوم).

نفهم من هذا أن الشعر المحدث لم ينته عصره ، لكن الواقع يقول إن مفهوم القديم والجديد أمر نسبي لا يمكن تحديده بسهولة ، فنحن اليوم نرى شعر شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم قديماً والشعر الحر أو قصيدة النثر شيئاً جديداً .

ولقد فطن ابن رشيق لهذه القضية – نسبة القديم والجديد – فقال : (كل قديم من الشعراء محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله) ويعلق على قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ

بقوله : (يدلك على أنه كان يعد نفسه محدثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ، ولم يغادروا له منه شيئاً).

ومن هذا نجد أن المتعصبين للقديم هم الرواة واللغويون لارتباطه بمهنتهم ، وقد خصهم ابن رشيق في حديثه على تقليلهم وتقبيحهم للجديد فقال : (هذا مذهب أبي عمرو واصاحبه كالأصمعي وابن الأعرابي أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم) .

فقد كان هذا السبب الأكبر في الانتصار للقديم ، إذ كانت حاجة الرواة واللغويين للشاهد في تفسير لفظة في آية أو حديث يدعم أقوالهم ويؤكدها .

كما يوضح ابن رشيق أن تعصب هؤلاء كان لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون .

كما كان الخلفاء والوزراء يدنون الرواة واللغويين ويقدمونهم على غيرهم ، فهم أما كتاب لديهم أو مؤدبون لأولادهم ، ولذا قدس الرواة واللغويون الشعر القديم .

ونجد ان احتكام هؤلاء النقاد المتعصبين للقديم في تقويم الشعر إلى الزمن قبل أن يكون إلى الفن وأصوله أو إلى الشعر ومقاييسه يعد فساداً في الذوق وميلاً عن جادة الصواب

، واتباعاً للهوى ولذا فقد كانوا يعجبون بالشعر عند سماعه أول مرة ، فإن علموا أنه محدث ردوه وعابوه .

يقول ابن قتيبة : (فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلَّا أنه قيل في زمانه) .

وهنا يثار سؤال مهم جدا هل يتعصب النقاد للشعر القديم على أساس فني؟

من الواضح أن أنصار القديم نتيجة تحمسهم وتعصبهم له يريدونه المثل الأعلى ، ويريدونه الأحسن فينظرون للمحدث نظرة ازدراء وتقبيح ، وأنه متكلف لا طبع فيه .

إذ نجد القاضي الجرجاني يقول : (وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً ، وأقل مرزأة من تسليم فضيلة المحدث والإقرار بالإحسان لمولد) . حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال : أنشد الأصمعي :-

هَلْ إلى نَظْرَةٍ إليْكَ سَبِيلُ فيُبَلّ الصَّدَى ويُشفى الغليلُ
إنَّ مَا قلّ مِنكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقليلُ

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني ؟

فقلت : إنها لليلتهما فقال : لا جرم والله أَن أثر التكلف فيهما ظاهر .

ويقول ابن رشيق : (وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد حسن هذا المولد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا بروايته يعني بذلك شعر جرير والفرزدق ... وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين) .

فهاتان الروايتان وغيرهما كثير مبثوث في كتب الأدب ، تدلان على أن تفضيل المتعصبين للقديم لم يكن قائماً على أسس فنية واضحة معروفة وما ذكرناه من أسباب التعصب للقديم يؤيد هذا .

كما روي عن الأصمعي قال : (سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول لقيت الفرزدق في المربد فقلت يا أبا فراس ، أحدثت شيئا : فقال خذ ثم أنشدني :

كم دون ميّة من مستعملٍ قذَفٍ ومن فَلاة تُستودَع العِيسُ

قال : قلت سبحان الله هذا للمتلمس) .

وقد تجاوز أبو عمرو بن العلاء بالنقد الشعراء الإسلاميين إلى المحدثين (فقد سئل من أبدع الناس بيتاً ، فقال : الذي يقول :-

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفي عني الكرى طيفٌ ألم

وفي الخبر نفسه سئل من أغزل الناس بيتاً ، قال : الذي يقول :-

ختم الحب لها في عنقي موضع الخاتم من أهل الذمم

والبيتان لبشار بن برد) .

ونذكر هنا بعض نماذج من دراسات المعنيين المعاصرين ، تقوم في جوهرها على اتهام الرواة والنقاد اللغويين بالتعصب ضد شعر الشعراء المحدثين ، وهذه تقوم على قراءة أحادية الجانب لقليل من النصوص القديمة التي تنسب إلى قدامى النقاد من أمثال أبي عمر بن العلاء (ت 154هـ) ، وخلف الأحمر (180هـ) ، والأصمعي (215هـ) وابن الإعرابي (321هـ) .

أما ابن الأعرابي فقد قال : (إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوماً ويذوي ، ثم يرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته أزداد طيبا) .

هذا النص تبرز فيه مسألتين نقديتين سلبيتين أظهرهما قدامى النقاد في شعر المحدثين : الأولى قضية التفاوت الشعري ، والثانية سرعة زوال أثر هذه الأشعار عند المتلقين .

وفي حقيقة الأمر لا تشكل هذه النصوص قراءة كاملة دقيقة تعبر عن مواقف قدامى النقاد اللغويين تجاه الشعر المحدث .

فقد ورد أن أبا عمرو بن العلاء لا يعد الشعر إلا للشعراء الجاهليين ، وفي حقيقة الأمر كان يتابع أشعار الإسلاميين . وهو يحكم حكماً إجماليا على شعر الإسلاميين ويصفه بالحسن إذ يقول : (لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ، يعني بذلك شعر جرير و الفرزدق ، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والإسلام) .

وهكذا نرى من خلال ما تقدم من نصوص نقدية أن أبا عمرو بن العلاء لم يتوقف عند أشعار الجاهليين في الرواية والنقد وإنما تجاوز ذلك إلى أشعار الإسلاميين،بل قدم أول الشعراء المحدثين ورأسهم بشار بن برد في غرض الغزل على كل الشعراء. أما الأصمعي فقد ختم الشعر بابن هرمة إذ قال:(ختم الشعر بابن هرمة ، فإنه مدح ملوك بني مروان ، وبقى إلى آخر أيام المنصور) .

وهو في الوقت نفسه الذي يصرح فيه بذلك ، نراه يتابع أشعار المحدثين ، ويشيد ببعضهم فهو يوازن بين شاعرين محدثين مقدماً أحدهما على الآخر ،... إذ قال : (بشار يصلح للجد والهزل ومروان لا يصلح إلا لأحدهما) .

وكذلك أعلن الأصمعي إعجابه بشعر أبي نواس ، فقد روى أن الوزير الفضل بن يحيى طرب إلى مذاكرته ... ومما قاله الأصمعي في أثناء هذه المذاكرة فلم أتمالك أن قلت : قاتل الله أبا نواس إذ قال :

إذا ما أتت دون اللَّهاةِ من الفتى دعا هَمُّه من صدرِه برحيلِ

فقال الفضل : هذا البيت له ؟ قلت نعم يا سيدي قال وليس إلا هذا البيت الواحد ،

قلت أعز الله الوزير هي أبيات، قال هاتها فأنشدته إلى قول :

ألم تر أن المال عونٌ على النَّدى وليس جوادٌ مُعْدِمٌ كبخيل

قال : قاتله الله ما أشعره ، يا غلام أثبتا ... فقلت أصلح الله الوزير إنه مع ذلك بمكان من الأدب ، ولقد جالسته في مجالس كثيرة ، قد ضمت ذوي فنون من الأدباء والعلماء ، فما تجاروا في شيء من فنونهم إلا جاراهم فيه ثم برز عليهم وهو من الشعر بالمحل الذي قد علمته ...).

ويشير الخبر السابق إلى أن الأصمعي كان معجبا بشعر أبي نواس ، وفي النص إشارة إلى أنه قد حكم على شعر أبي نواس حكماً فنياً ، فقدم أسلوبه على كثير من الشعراء أقرانه.

وهكذا نرى أن الأصمعي لم يقف موقف سلبياً من شعر المحدثين ، وإنما اتخذ الجودة معياراً فنياً في الحكم على أشعارهم ومن ثمة تفضيلهم . وابن الأعرابي الذي روي له ازدراؤه شعر المحدثين ، فإنه كان على صلة بشعرهم ، بل إنه قدم أبياتاً للشاعر أبي نواس في المديح على كل أشعار المحدثين إذ قال : أمدح بيت قاله المحدثون قول أبي نواس :

أخذت بحبلٍ من حبال محمدٍ أمِنْتُ به من طارقِ الحدَثَانِ

تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيامُ عني ما دَرَت وأين مكاني ما عرفنَ مكاني

وهكذا نرى من خلال ما تقدم من نصوص نقدية أن أبا عمرو بن العلاء لم يتوقف عند أشعار الجاهليين في الرواية والنقد وإنما تجاوز ذلك إلى أشعار الإسلاميين ، بل قدم أول الشعراء المحدثين ورأسهم بشار بن برد في غرض الغزل على كل الشعراء .

وهناك رواية تقول : إن الأصمعي كان يفضل بشار على مروان ، مع أن الأخير كان أقرب إلى طريق القدماء من بشار، بل يذكرون من مبررات تفضيل الأصمعي لبشار ، تجديد بشار وعدم سيره على مذهب الأوائل) .

وهذا يدل على أن الأمر كان مجرد تفضيل القديم على الحديث لفضل الأصمعي مروان على بشار، إلا أننا نجد طه احمد إبراهيم لم يقدم تفسيرا لذلك .

ومن كل ما تقدم يمكن القول أن من الطبيعي أن يختلف قدامى النقاد قرباً وبعداً حول هذا الجديد ، ولكن الإشكالية تبدو في مواقف المهتمين المعاصرين أصحاب الدراسات الحديثة الذين ضخموا هذا الاختلاف بين قدامى النقاد والجديد من الشعر ، كما ذكرنا سابقا ، لا بل أوصلوا الصراع إلى درجة القطيعة بين النقاد واللغويين والشعر المحدث .

وبهذا الحديث نستنتج عن فكرة نفي تعصب النقاد القدامى ضد الشعراء المحدثين حديث ممتد لتلك القضية المألوفة في النقد العربي وهي قضية القدماء والمحدثين ، هذه

القضية التي شغلت حيزاً كبيراً في النقد العربي قديمه وحديثه فقيل فيها بغير ما هي عليه ، ولكنها ظهرت على حقيقتها على حسب علمي بعد تناولها الدكتور عبد الحكيم راضي لها فخرجت من دائرة المألوف غير الصحيح إلى دائرة المألوف الصحيح المطلوب إثباته والتدليل عليه.